بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 10 أبريل 2017

مريـــــم في التفسير: قراءة في فعل الأسلمة

(تفسير "التحرير والتنوير" نموذجاً)

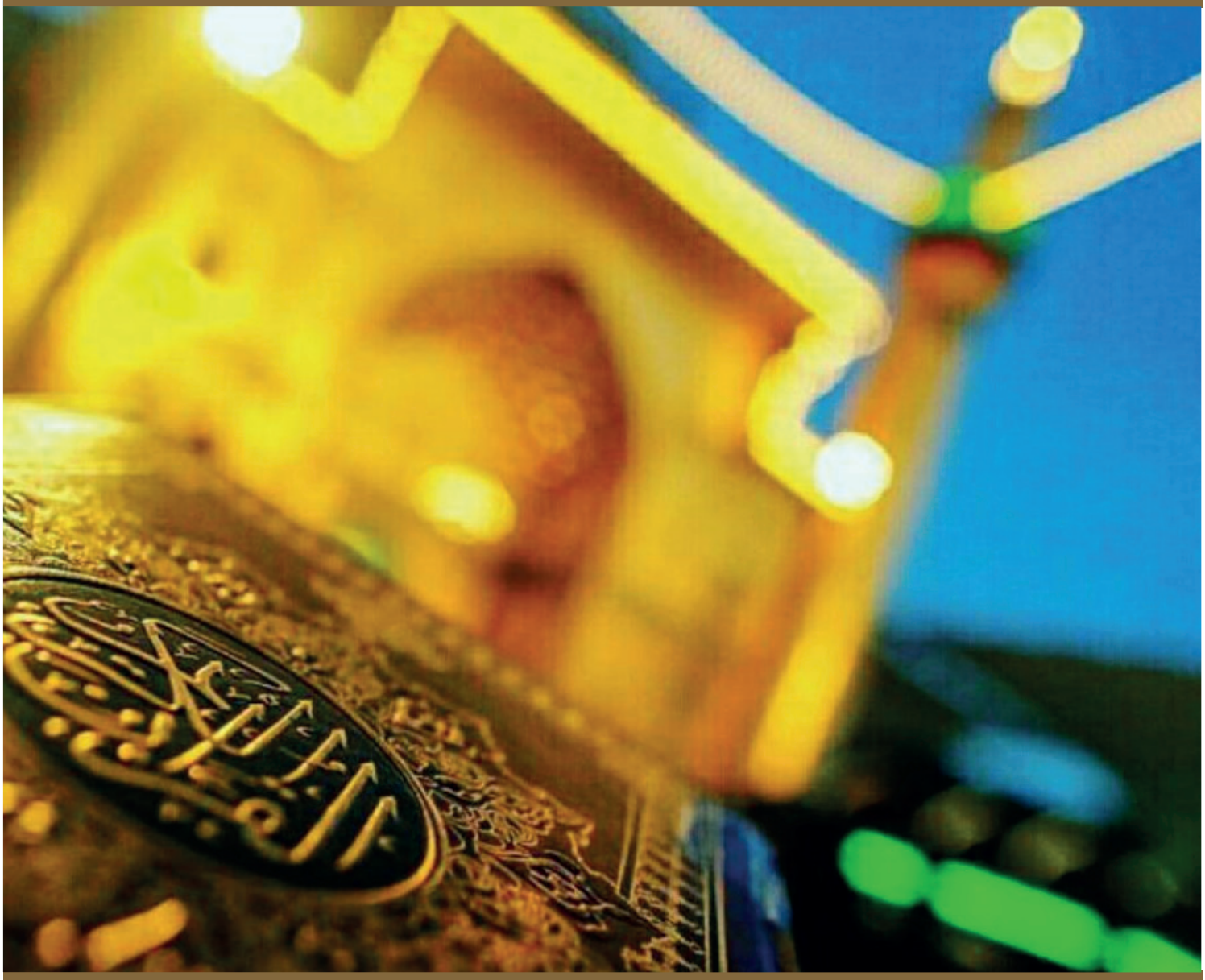

نجم الدين النفّاتي
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

المقدّمة:

تتعدَّد الأسئلة التي تطرح أثناء وقوفنا عند مسألة تتبُّع صورة مريم في تصوُّر رجل الدين المسلم، وخاصة إذا ما عملنا تحت غطاء منهج مقارنيّ يحتم علينا البحث في دقائق الأمور لغاية معرفة علاقة الصورة المقدَّمة بالصورة كما رسمتها الديانة الأصل، فهل نجد حديثاً عن مريم كما هي في الصياغة اللاهوتيَّة المسيحيَّة التي ترى فيها:

- أمَّاً للمسيح (متى 1: 1، 17، لوقا 2: 11، 26) ابن العلي (لوقا 1، 3)، الرب (لوقا 1: 43، 2، 11) ابن الله (لوقا 1: 35، متى 2: 15) المخلص (متى 1، 21). التقليد المسيحي قبل هذا اللفظ في مفهومه العميق أثناء القرن الرابع وجد لقب أمّ الإله في مصر وقد ذاع داخل الكنيسة.

- مريم العذراء (متى 1: 2، لوقا 1 - 2 / يوحنا 1، 13) وتعتبر في اعتقاد البروتستانت والذين اتبعوا التقليد البوليسي (غلاطيه 4: 4) حيث تظهر على أنَّها أداة للتجسُّد.

أمَّا الأرثوذوكس فقد اتبعوا منهج يوحنا فركَّزوا على مريم أمّ الإله (يوحنا 1: 14).

أمَّا الكاثوليك فقد اندمجوا داخل الخط الذي رسمه لوقا (1: 2) القدّيس المؤرخ للعهد الجديد، وقد أشاد بقوّة بمجدها وقداستها[1].

فهل بدت مريم في التحرير والتنوير مسيحيَّة الملامح والمواقف والديانة، أم خلافاً لذلك بدت شخصيَّة تطوّقها الملامح الإسلاميَّة فلا نأنس فيها سوى امرأة تدين بدين الإسلام؟ لمعرفة ذلك سوف نقف عند النقاط التالية:

1- في معنى اسم مريم:

لكلّ اسم دلالته وخفاياه وخصوصياته، فالاسم يحيل في بعض الأحيان على معرفة انتساب المُسمَّى. وقد نتساءل ونحن نقرأ اسم مريم هل هو اسم عربي أم لا؟

ويجيبنا ابن عاشور بأنَّ اسم مريم في أصله اسم عبريّ، ولكنَّه نقل من العبريَّة إلى العربيَّة على حاله لخفته ولا معنى له في العربيَّة غير العلميَّة، إلا أنَّ العرب المتنصّرة عاملوه معاملة الصفة في معنى المرأة المتباعدة عن مشاهدة النساء، لأنَّ هذه الصفة اشتهرت بها مريم، إذ هي أوَّل امرأة عبرانيَّة خدمت بيت

1. Paul Poupard: Dictionnaire des religions, pp 1050-1051.

المقدس، ولذلك يقال امرأة مريم أي معرضة عن صفات النساء[2]. ومريم علم عبراني وهو في العبرانيَّة بكسر الميم، وهو اسم قديم سُمّيت به أخت موسى عليه السلام[3]. وقد أرادت أمُّها تسميتها «مريم» لتكون حاملة لاسم أفضل نبيَّة من بني إسرائيل، وهي مريم أخت موسى وهارون، وخوَّل لها ذلك أنَّ أباها سُميّ أبا مريم أخت موسى[4].

2- في نسبها:

سعى ابن عاشور أثناء حديثه عن نسب مريم إلى دحض مقولة انتسابها إلى نسل سليمان بن داود. يقول «وما وقع للمفسرين أنَّ نسب مريم من نسل سليمان بن داود خطأ»[5]، فهي «مريم بنت عمران من سبط يهوذا»[6]، ويجاري في ذلك ما ورد في الأناجيل حول نسب مريم، فقد انحدرت هي ويوسف من سبط يهوذا من نسل داود، «وَلَمَا كَانَتْ أليصاباَتُ فِي شَهْرِهَا السَادِسُ أُرْسِلَ الملاكُ جبرائيلُ مِنْ قِبَلِ الله إلى مدينة بالجليل اسمها النَّاصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل اسمه يوسف، من بيت داود واسم العذراء مريم»[7].

أمَّا تعليق ابن عاشور على ما ورد في القرآن حول مريم «يا أخت هارون» ففيه اضطراب، فقد قال في سبب تسميتها «مريم»: «وقد أرادت أمُّها تسميتها «مريم» لتكون حاملة لاسم أفضل نبيَّة من بني إسرائيل وهي مريم أخت موسى وهارون، وخوَّل لها ذلك أنَّ أباها سُميّ أبا مريم أخت موسى»[8]، فهذا الخبر ورد في صيغة تقريريَّة يرى فيها القارئ أنَّ صاحبها يبدو واثقاً من معلوماته ولا ريب يحضره. ولكن سرعان ما تدخل هذه الثقة ساحة الريب والاحتمال عندما يتعرض لتفسير العبارة كما وردت في النص القرآني، فيعلق على «يا أخت هارون» بقوله: «ويُحتمل أن يكون على حقيقته فيكون لمريم أخ اسمه هارون كان صالحاً في قومه خاطبوها بالإضافة إليه. وهذا أظهر الوجهين، ففي صحيح مسلم وغيره عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله إلى أهل نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون «يا أخت هارون» وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟». قال المغيرة: فلم أدرِ ما أقول، فلمَّا قدمت على رسول الله ذكرت ذلك له فقال: «ألم يعلموا أنَّهم كانوا يُسمَّون بأسماء أنبيائهم والصالحين قبلهم»؟ ففي هذا تجهيل لأهل نجران أن طعنوا في القرآن على توَّهم أنَّه ليس في القوم من اسمه هارون إلا هارون أخا موسى»[9]. ويقدّم ترجيحاً

2- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج 1 ص 594.

3- م، ن، ، ج 3 ص 234.

4- م، ن، ج 3 ص 234.

5- م، ن، ج 16 ص 96.

6- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 1 ص 595.

7- إنجيل لوقا: 28/1.

8- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 3 ص 234.

9- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 16 ص ص 95-96.

آخر لمعنى «أخت هارون» أنَّها إحدى النساء من ذُريَّة هارون أخي موسى من سبط لاوي. ففي إنجيل لوقا: «كان كاهن اسمه زكرياء من فرقة أبيا وامرأته من بنات هارون واسمها إليصابات، وإليصابات زوجة زكرياء نسيبة مريم أي ابنة عمّها»[10].

وتجعلنا مثل هذه المسائل نتساءل عن السبب الكامن وراءها، لماذا بدا في الجزء الثالث ذلك الواثق من المعلومة، ثمَّ في الجزء السادس عشر حضرت الاحتمالات؟ أهو الحذر من الحسم في المسألة؟ أم هو الخوف من مخالفة السابقين؟ وهل يعتبر الحسم في المسألة بدعة، أم أنَّ الأمر يعود إلى أنَّ قدر المعاني في الكتاب المقدَّس أن تظلَّ ضبابيَّة تمارس قداستها في عدم الحسم النهائي في دلالتها؟ أم أنَّ قداسة الكلمة في ألّا تدلي بحقيقة واحدة، ويعلق الحكم في ذلك إلى أنَّ الله أعلم بها من عباده؟

ويمكن اعتبار كلّ هذه الاحتمالات إجابات عن ذلك.

3- في سيرتها وصفاتها:

يقول ابن عاشور في سيرة مريم: «وقد ولدتها أمُّها بعد وفاة أبيها فأوحى الله إلى زكرياء كفالتها، وأوحى إليه أيضاً بإقامتها بعد ذلك لخدمة المسجد ولم يكن ذلك للنساء قبلها، وكلُّ هذا إرهاص بأنَّه سيكون منها رسول ناسخ لأحكام كثيرة من التوراة»[11]. وكانت ملازمة لخدمة بيت المقدس وكانت تتعبد بمكان تتخذه لها محراباً، وكان زكرياء يتعهد تعبدها فيرى كرامة لها أنَّ عندها ثماراً في غير وقت وجود صنفها[12]. ويعلق ابن عاشور على نوع هذا الرزق فيقول: «قيل: كان عنباً في فصل الشتاء»[13]. وتستوقفنا عبارة «قيل»، لما تبعثه فينا من سؤال. فقد وردت مبنية للمجهول فهل يعني ذلك محاولة ذكيَّة من ابن عاشور في عدم تحمُّل مسؤوليَّة التحديد، أم أنَّ الأمر يعود إلى كونه يقاسم المتقبل المعلومة نفسها فلم يرَ حاجة إلى ضرورة البحث فيها؟

أمَّا في صفاتها فإنَّ مريم حظيت في التحرير والتنوير كما هو الأمر في الكثير من الدراسات الإسلاميَّة بمكانة مهمَّة. فيرى ابن عاشور أنَّ من أولى فضائلها أن كفلها زكرياء «**لأنَّ ما يزيد فضلها أنَّ أبا التربية يكسب خلقه وصلاحه مرباه**»[14].

10- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 16 ص 96.

11- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 3 ص 235.

12- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 3 ص 236.

13- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 3 ص 237.

14- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 3 ص 235.

وقد حظيت مريم باصطفاء الله لها، وللاصطفاء دلالتان: الأولى اصطفاء ذاتي وهو جعلها منزَّهة زكيَّة، والثانية بمعنى التفضيل على الغير ونساء العالمين نساء زمانها ونساء سائر الأزمنة.

وتكليم الملائكة لمريم واصطفاؤها يدلَّان على نبوَّتها، والنبوَّة تكون للنساء دون الرسالة[15]، وينفي ابن عاشور عنها صفة الألوهيَّة، يقول: «إنَّ القصد من وصفها بالصّدّيقة نفي أن يكون لها وصف أعلى من ذلك مثل وصف الإلهيَّة، لأنَّ المقام مقام لإبطال قول الذين قالوا إنَّ الله ثلاثة أن جعلوا مريم الأقنوم الثالث[16]. والإقرار بألوهيَّة مريم ظاهرة جديرة بالاهتمام. فهذا يعني أنَّ الثالوث المسيحي يتكون من «الله» و«مريم» و«عيسى»، وهي من النقاط التي تتنافى مع الرأي الشائع عند النصارى إلى اليوم»[17].

4- مريم وإشكاليَّة النبوَّة: مريم نبيَّة ولا علاقة لها بالألوهيَّة

من الدارج في الثقافة العربيَّة الإسلاميَّة انحصار النبوَّة في صنف الرجال دون النساء، فلا نكاد نعثر داخل النص المؤسّس (القرآن) على ذكر لاسم نبيَّة. وهو أمر تدعمه قراءة العديد من التفاسير التي أنجزت حول النص المقدَّس. ولكنَّنا أثناء رصدنا لصورة مريم في التحرير والتنوير ألفينا ابن عاشور يقول بنبوَّتها، وهو ما يجعلنا نقف أمام العديد من الإشكاليَّات، نذكر منها:

- هل شذَّ في حكمه هذا عن القاعدة، أم أنَّه يوجد من سبقه في طرق هذه المسألة؟
- هل من خلفيَّات للقول بنبوَّة مريم؟
- هل نجد في الديانة المسيحيَّة اعترافاً بنسبة لقب النبوَّة إلى مريم؟
- هل بلغ الاحتفاء بمريم في الضمير الإسلامي درجة تنصيبها منصب النبوَّة؟
- هل قدر مريم أن تكون مفارقة للبشر في الديانتين: ففي المسيحيَّة أم إله، وفي التحرير والتنوير نبيَّة؟

15- ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 3 ص 244.

16- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 3 ص 255.

17- الشرفي، عبد المجيد، الفكر الإسلامي في الردّ على النصارى، ط1، الدار التونسيَّة للنشر والمؤسَّسة الوطنيَّة للكتاب بالجزائر، تونس الجزائر 1986، ص 253.

للبحث في مسألة نبوَّة النساء عدنا إلى العهد القديم فوجدنا اعترافاً بوجود نبيَّات إلى جانب الأنبياء من الرجال، وقد ورد ذكرهن في قاموس الكتاب المقدَّس في مادة «نبي»[18*].

اسم النبيَّة	الكتاب المقدَّس
مريم أخت موسى وهارون	خروج 15: 20: 21/ العدد 12: 12
دبورة	قضاة 4: 4 و5: 1
حنة صموئيل	1 صم 2: 1
خلدة امرأة شلوم	2 مل 14
حنة بنت فنوئيل	لو 2: 36
بنات فيلبس الأربع	اع 21: 9

وخلاف ذلك غاب الحديث عن النبوَّة في الثقافة الإسلاميَّة في صنف النساء وانحصرت في صنف الرجال، وقد يكون هذا الأمر مثيراً للسؤال وحريَّاً بالدراسة، فهل يعود ذلك إلى طبيعة الثقافة التي تأسَّس فيها النص الديني الإسلامي وهي ثقافة «الرجل» و«الفتى» و«الذكر» و«السيد» و«المولى» إن جازت العبارة؟ أم أنَّه يعود إلى أمور أخرى؟ نحن لا ندَّعي أنَّنا نمتلك الإجابة وحسبنا من المسألة إثارة الإشكال.

أمَّا مع ابن عاشور فإنَّ مريم نبيَّة، ويبني رأيه هذا على مقولتي الاصطفاء؛ أي اصطفاء الله لها وتكليم الملائكة «وحظيت مريم باصطفاء الله لها فتكرَّر فعل اصطفاك»، لأنَّ الاصطفاء الأوَّل اصطفاء ذاتي وهو جعلها منزَّهة، والثاني بمعنى التفضيل على الغير ونساء العالمين نساء زمانها ونساء سائر الأزمنة. «وتكليم الملائكة لمريم واصطفاؤها يدلَّان على نبوَّتها، والنبوَّة تكون للنساء دون الرسالة»[19]. وفي مذهبه هذا لم يكن ابن عاشور أوَّل الضاربين بسهمهم في مسألة نبوَّة مريم، وإنَّما نجده قد اقتفى في ذلك أثر ابن حزم «فقد أرسل الله جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام فخاطبها وقال لها: «إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا» فهذه نبوَّة صحيحة بوحي صحيح ورسالة من الله تعالى»[20]، «وليس قوله عزَّ وجلَّ: «وَأُمُّهُ صِدِيقَةٌ» بمانع من أن تكون نبيَّة، فقد قال تعالى «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ» وهو مع ذلك نبي»[21]. وقد اعتمد ابن حزم على مفهوم مصطلح النبوَّة حجَّة على ما ذهب إليه، يقول: «**وهذا أمر لا ينازعون فيه ولم يدَّع أحد أنَّ الله أرسل امرأة. وإنَّما الكلام في النبوَّة دون الرسالة. فوجب طلب الحق في ذلك بأن ننظر في معنى لفظة**

---

*18 قاموس الكتاب المقدَّس، مادة نبي، ص 952.

"وقد عنت النبوَّة عند اليهود الأخبار عن الله وخفايا مقاصده وعن الأمور المستقبليَّة ومصير الشعوب والمدن والأقدار، بوحي خاص مُنزَّل من الله على فم أنبيائه المصطفين"، قاموس الكتاب المقدَّس، ص 951.

19- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج 3 ص 244.

20- ابن حزم، كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الجبل، بيروت ـ لبنان، ج 5 ص 120.

21- ابن حزم، المصدر نفسه، ج 5 ص 121.

النبوَّة في اللغة التي خاطبها الله بها عزَّ وجلَّ بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبئاً له بأمر ما فهو نبيّ بلا شك»[22].

«فإنَّ الملائكة قد بلّغتها الوحي عن الله عزَّ وجلَّ بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلّغت سائر الأنبياء. فهي إذن نبيَّة»[23].

فنبوَّة مريم إذاً وإن لم تأتِ في نصٍّ صريح واضح فإنَّها موجودة بناء على قياس الأحداث. فتوفر شروط النبوَّة المتمثلة في الاصطفاء والتكليم الذي يحتوي مسألة الإنباء «إِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمهُ المَسِيحُ عِيسَى بنُ مَرْيمَ» (آل عمران 45). وكأنَّنا بابن عاشور يقحم مقولة نبوَّة مريم مقابل رفض مقولة الألوهيَّة.

5- مريم وقصَّة المولد:

حظيت قصَّة ميلاد عيسى بمكانة مهمَّة في الديانتين الإسلاميَّة والمسيحيَّة. فالمسيحيَّة اهتمَّت بها من جهة كونها تمثل حدثاً مهمَّاً في تاريخ البشريَّة، إنَّه حدث تأنس ابن الله الذي جاء من أجل خلاص البشريَّة. أمَّا الإسلام فقد اهتمَّ بالقصة للردّ على النصارى، فالميلاد العجائبي لعيسى لا يجعله يتجاوز كونه بشراً، فلا يمكننا الحديث عن عيسى داخل المنظومة الفكريَّة اللَّاهوتيَّة الإسلاميَّة دون الوقوف عند قصَّة الميلاد وما حفَّ بها من عجيب في مراحلها الثلاث، أي مرحلة البشارة والحمل والولادة.

5-1- مرحلة البشارة:

تخضع عمليَّة البشارة إلى ثلاثة أقسام:

مُبشِّر بشارة مُبشَّر

←

الله الحمل مريم

نحن نعلم أنَّ التواصل بين الله والإنسان لا يكون مباشرة، باستثناء ما تحمله الثقافة اليهوديَّة حول تكليم الله موسى، وقد أطلقت عليه الثقافة العربيَّة الإسلامية «كليم الله»، ولكن يكون عبر الملائكة/ الملك. أي أنَّ

22- ابن حزم، المصدر نفسه، ج 5 ص 119.

23- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001 ج4، ص 82-83.

قناة التواصل بين الله والبشر هي الملائكة. ولكن يجب أن نقف عند القصتين لغاية معرفة طبيعة قراءة ابن عاشور للقصة، ولذلك سوف نقف عند قصة البشارة في المسيحيَّة ثم في «التحرير والتنوير».

*** البشارة بميلاد يسوع المسيح كما دوَّنها «لوقا»:**

أرسل الله الملاك جبرائيل إلى بلدة في الجليل اسمها الناصرة إلى عذراء اسمها مريم كانت مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، فدخل عليها الملاك وقال لها: «السَّلاَمُ عَلَيْكِ يَا مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهَا، الرَّبُ مَعَكِ» فاضطربت مريم لكلام الملاك وقالت في نفسها: «ما معنى هذه التحيَّة؟» فقال لها الملاك: «لاَ تَخَافِي يَا مَرْيَمُ نِلْتِ حُظْوَةً عِنْدَ الله فَسَتَحْبَلِينَ وَتَلِدِينَ ابْنًا تُسَمِينَهُ يَسُوعَ، فَيَكُونَ عَظِيماً وابنَ الله العَلِيِّ يُدْعَى وَيُعْطِيهِ الرَّبُ الإِلَهُ عَرشَ أَبِيهِ دَاودَ وَيَمْلِكُ عَلَى بَيْتِ يَعْقُوبَ إِلَى الأَبَدِ، وَلاَ يَكُونُ لِمُلْكِهِ نِهَايَةٌ!»، فَقَالَتْ مَرِيَمُ للملاكِ: «كَيْفَ يَكُونُ هَذَا وَأَنَا عَذْرَاءُ لَا أَعْرِفُ رَجُلًا؟» فَأَجَابَهَا المَلاَكُ: «الرُوحُ القُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ وَقُدْرَةُ العَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، لِذَلِكَ فَالقُدُوسُ الذي يُولدُ مِنْكِ يُدْعَى ابنُ الله» ...، فقالتْ مَرْيَمُ: «أَنَا خَادِمَة الرَبِّ فَلْيَكُنْ لِي كَمَا تَقُولُ». وَمَضَى مِنْ عِنْدِهَا المَلاَكُ.»[24] نلاحظ إذاً أنَّ البشارة اتخذت الشكل التالي:

الله
↓
جبرائيل
↓
مريم

وهذا الشكل على حدّ عبارة الأستاذ حمادي المسعودي يحيلنا على رسم آخر أعمّ وأشمل في النصوص الدينيَّة، ويبيّن لنا الطريقة التي يتمُّ بها التواصل بين الذات الإلهيَّة من ناحية والكائنات البشريَّة من ناحية ثانية، وهذا الشكل يمكن أن يرسم بحسب الصورة التالية:

الله
↓
الملاك[25]
↓
النبي
↓
القوم

24- إنجيل لوقا (1: 26- 38).

25- مسعودي حمادي، الاحتفاء بالخلق في النصوص الدينيَّة، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان التاسع عشر والعشرون 1992.

وهذا التحوُّل في العناصر المكوّنة لأطراف التواصل يجعلنا نعتقد أنَّ المتقبل وهو مريم في النصوص الدينيَّة المتعلقة بالمسيح -له من الخصائص ما يميزه عن غيره من الناس- ولعله الأمر الذي دفع بـ«**ابن عاشور**» و«**ابن حزم**» للقول بنبوَّتها.

ما يستوقف انتباهنا في مسألة البشارة كما وردت في إنجيل لوقا «فقالت مريم للملاك: «كَيْفَ يَكُونُ هَذَا وَأَنَا عَذْرَاءُ لَا أَعْرِفُ رَجُلًا؟» فَأَجَابَهَا المَلِكُ: «**الرُوحُ القُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ وَقدْرَةُ العَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، لِذَلِكَ فَالقُدُوسُ الَّذِي يَلِدُ مِنْكِ يُدْعَى ابنُ الله**»[26].

وورودها في القرآن «**وَاُذْكُرْ فِي الكِتابِ مَريمَ إذ انتبذتْ مِنْ أَهْلِهَا مكانًا شرقيًا فاتخذتْ منْ دونِهم حِجَابًا فأرسَلْنَا إليْهَا رُوحَنَا فتمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سويًا... قال إنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبّكِ لأَهَبَ لك غلامًا زكيًا. قالت أَنَّى يَكُون لِي غلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بغيًا قَالَ كذلك قالَ ربُّكِ هوَ عليَّ هيّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيةً لِلْنَاسِ ورحمةً منّا وكانَ أمرًا مقضيًا**»[27].

لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ الطرف الذي وصل بين الذات الإلهيَّة ومريم لافت للانتباه، لذلك ينبغي أن نتوقف عند دلالة الملاك/ الملائكة، الروح/ الروح القدس في النصوص الدينيَّة.

* **الملاك**: تدلُّ الكلمة في اليونانيَّة والعبريَّة على الرسول، وتستعمل في العادة للدلالة على أرواح مرسلة للخدمة لأجل أن يرث العتيدون الخلاص[28].

* **الملاك جبرائيل**: يدلُّ على اسم علم لملاك ذي رتبة رفيعة، وهو الذي أرسل إلى مريم ليحمل البشارة إلى زكرياء بميلاد يوحنا المعمدان (لوقا 1: 11 - 22)، وأرسل إلى الناصرة ليبشر العذراء بأنَّها ستكون أمًّا للمسيح (لوقا 1: 26 - 38) ويذكر لوقا أنَّ الله هو الذي أرسل جبرائيل إلى مريم (لوقا 1: 26).

* **الروح القدس**: يختلف الروح القدس في النص الإنجيلي عن الملاك جبرائيل وعن الملائكة بصفة عامَّة. جاء في إنجيل لوقا: قَالَتْ مَرْيَمُ لِلْمَلاَكِ: «كَيْفَ يَكُونُ هذَا وَأَنَا لَسْتُ أَعْرِفُ رَجُلاً؟» فَأَجَابَ الْمَلاَكُ قائلاً: "اَلرُّوحُ الْقُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ الْعَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، فَلِذلِكَ أَيْضًا الْقُدُّوسُ الْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ابْنَ اللهِ".[29]

26- إنجيل لوقا 1: 34، 35.

27- مريم 16 / 21.

28- قاموس الكتاب المقدَّس، ص 920 مادة "ملاك".

29- إنجيل لوقا 1: 34 - 35.

وورد في إنجيل متى "أَمَّا وِلاَدَةُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ فَكَانَتْ هكَذَا: لَمَّا كَانَتْ مَرْيَمُ أُمُّهُ مَخْطُوبَةً لِيُوسُفَ، قَبْلَ أَنْ يَجْتَمِعَا، وُجِدَتْ حُبْلَى مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ»[30].

يذكر «قاموس الكتاب المقدَّس» أنَّ الروح القدس هو روح الله وهو الأقنوم الثالث في الثالوث، سُمّي روحاً لأنَّه مبدع الحياة، ودُعي قدوّساً لأنَّ من ضمن عمله تقديس قلب المؤمن، ويُدعى كذلك روح الله وروح المسيح، وقد أضفيت عليه صفات الألوهيَّة فهو يعلم بكلّ شيء، ويوجد في كلّ مكان ويقدر على كلّ شيْ، وهو أزلي خالق واهب للقوَّة والحكمة والفهم والمعرفة كتب الكتاب المقدَّس بإلهام منه»[31].

* **الروح**: جاء في «لسان العرب» «لابن منظور» العديد من المعاني لتفسير كلمة «روح»، فهي تدلُّ على النفس، الروح يعني ما به حياة النفس، وهو الذي به حياة الإنسان، ويمكن أن تدلَّ الكلمة «كلمة روح» على القرآن الوحي، جاء في الآية: «يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده» (المؤمنون 1)، فالروح لها معنى الوحي. وورد في القرآن: «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا.» (مريم 1). «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» (الحجر 29 / 72).

«وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» (النساء 171). يذكر ابن منظور (لسان العرب) أنَّ الروح في هذه الآيات الثلاث يدلُّ على خلق من خلق الله لم يعط علمه أحداً، ويذكر أنَّ المراد بالروح هو ما يقوم به الجسد وتكون به الحياة، وقد أطلق الروح على القرآن والوحي والرحمة وجبريل، جاء في سورة البقرة (الآية 87) «وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ».

وقد يستعمل «الروح الأمين» ويفيد «روح الله» معنى حكمه وأمره[32]. وتثير هذه التعاريف فينا السؤال التالي: هل ميَّز ابن عاشور بين روح القدس وجبريل؟

وتجدر الإشارة إلى ضرورة التمييز بين روح القدس (روح الحق/ المعزى) في «الكتاب المقدَّس» (العهد الجديد) والروح أو روح القدس في النص القرآني.

يدلُّ الروح القدس في الإنجيل على الأقنوم الثالث وله من الصفات ما للإله. أمَّا في النص الإسلامي فهو الواسطة بين الله والأنبياء، وأحياناً بينه وبين بعض العباد الصالحين، ويقصد به عادة جبريل. ومن وظائفه في النص القرآني أنَّه يمثل إحدى قنوات تبليغ الوحي إلى النبي.

30- إنجيل متى 1: 18 - 20.

31- قاموس الكتاب المقدَّس، ص ص 114 - 115.

32- ابن منظور، لسان العرب: مادة الروح.

في تعريفه للروح القدس يقول ابن عاشور: «روح القدس روح مضاف إلى النزاهة فيجوز أن يكون المراد به الروح الذي نفخ الله في بطن مريم فتكون منه عيسى، وإنَّما كان ذلك تأييداً له لأنَّ تكوينه في ذلك الروح اللدني المطهّر هو الذي هيّأه لأن يأتي بالمعجزات العظيمة، ويجوز أن يكون المراد به جبريل والتأييد به ظاهر لأنَّه الذي يأتيه بالوحي وينطق على لسانه في المهد وحين الدعوة إلى الدّين، وهذا الإطلاق أظهر هنا، وفي الحديث الصحيح «أنَّ روح القدس نفث في روعي أنَّ نفساً لن تموت حتى تستوفي أجلها».

وما نلاحظه هو أنَّ مفهوم «الروح القدس» الذي يقدّمه ابن عاشور ليس هو المفهوم نفسه المتناول في الديانة المسيحيَّة، وإنَّما قدَّم لنا المفهوم المتداول في الثقافة الإسلاميَّة التي يتمُّ الخلط فيها بين جبريل والروح القدس.

5-2- مرحلة الميلاد:

ينطلق ابن عاشور في حديثه عن ميلاد عيسى بتحديد سن مريم: «فقدت ولدته وهي ابنة ثلاث عشرة سنة»[33]. وإذا كان هذا الأمر صحيحاً فإنَّه يعود بنا إلى الوراء قليلاً للتساؤل حول مسألة نبوَّة مريم. فهل جرت النبوَّة في سن مبكرة كهذه ونحن نعلم أنَّ جلَّ الأنبياء أوتوا النبوَّة في سن متقدّمة؟ ولكن قد لا يبدو الأمر غريباً بالنسبة إلى رجل الدّين. فالفكر الدّيني لا يرتب الأشياء على الطريقة العلميَّة المنطقيَّة، وإنَّما يرتبها وفق قوانين خاصَّة لا تعترف بالمعقول واللَّامعقول. فرجل الدّين وهو يتحدث من داخل المنظومة الدّينيَّة التي ينتمي إليها لا يدعوك إلى إعمال عقلك بقدر ما يدعوك إلى الإيمان: «لا تفكّر بل آمن»، أمَّا إذا لاحظت تضارباً أو اختلالاً فحاول أن تفسره بإرجاعه إلى تلك القدرة الخارقة التي لا يعجزها شيء، وقد تكون قداسة ذلك الأمر في خروجه عن المألوف.

ويسعى أثناء حديثه عن مكان الولادة إلى تصويب خبر ولادة عيسى في مصر، يقول: «وقيل خرجت إلى البلاد المصريَّة فارَّةً من قومها أن يعزّروها، وأعانها خطيبها يوسف النجار وأنَّها ولدت عيسى، عليه السلام، في الأرض المصريَّة، ولا يصح.» ويقدّم في مقابل ذلك الخبر الصواب الذي ورد في إنجيل لوقا: «ولدته في قرية بيت لحم من البلاد اليهوديَّة حين صعدت إليها مع خطيبها يوسف النجار، إذ كان مطلوباً للحضور بقرية أهله لأنَّ ملك البلاد يجري إحصاء سكان البلاد[34].

33- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج 1 ص 595.

34- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 16 ص 84.

وبعد الاستئناس بما ورد في الأناجيل في تحديد مكان الولادة هل سيواصل هذا الاستئناس في وصف مكان الولادة وحيثياتها، أم أنَّه سيكتفي بسياسة الانتقاء فيستشهد بما ورد في الأناجيل إلا إذا كانت الفكرة التي يتحدث عنها لا تمسُّ المعتقد؟

ورد في إنجيل لوقا ما يلي: «**وَبَيْنَمَا هُمَا فِي بَيْتِ لَحْم جَاءَ وَقْتُهَا لتلد فَوَلَدَتْ ابنَهَا البِكْرَ وَقَمَّطَتْهُ وأضجعتْهُ فِي مِذْوَدٍ لأنَّهُ كَانَ لَا مَحَلَّ لَهُمَا فِي الفُنْدُقِ**»[35].

الملاحظ للوهلة الأولى أنَّ ابن عاشور لم يخالف القراءات الإسلاميَّة وتحديد مكان الولادة يقول: «**لجأت إلى جذع نخلة ميتة. كان جذع النخلة جذع نخلة ميتة**»[36]. يقول الأستاذ حمادي المسعودي: «من سمات هذا الضرب من الشجر الطول والصلابة والاستقامة في الارتفاع وكثرة الإنتاج وطول مدَّة الحياة، وقد استعملت صورة النخلة في تزيين هيكل النبي سليمان وأوراقها رمزاً للظفر ولفرش الطريق أمام المنتصرين، وقد استقبل يسوع بسعف النخيل عندما دخل القدس قبل عيد الفصح بأسبوع، وورد في «الكتاب المقدَّس» ذكر لمكان ارتبط فيه اسم النخلة باسم إله واسم هذا المكان «بعل تامار» أي بعل النخل، ويذكر «سفر قصة» في (العهد القديم) اسم «نخلة دبورة»، وهي نخلة كانت تجلس تحتها النبيَّة دبورة لتقضي بين الناس»[37]. لذلك يعتبر ذكر النخلة علامة من علامات الاحتفاء بالخلق في النص الإسلامي.

سعى ابن عاشور إلى وصف حالة مريم قائلاً: إنَّها بلغت حالة من الحزن جعلتها تتمنى الموت لأنَّه أهون عليها من الوقوع في مثل هذه المشكلة[38]، لكنَّه يحاول جعل هذه الحالة من الحزن ذات دلالة إيجابيَّة، فمن ميزة الأنبياء الصبر على الابتلاء، يقول:

«لقد تمنَّت الموت «قبل الحمل» ولم تتمنَّه بعده [..] فقد أرادت ألَّا يتطرق عرضها بطعن ولا تجرّ على أهلها معرَّة. ولم تتمنَ أن تكون ماتت بعد بدو الحمل لأنَّ الموت حينئذ لا يدفع الطعن في عرضها بعد موتها ولا المعرَّة عن أهلها، إذ يشاهد بطنها بحملها وهي ميتة فتطرقها القالة[39]، ويرى في ذلك دليل صبرها وصدقها في تلقي البلوى التي ابتلاها الله بها، ولذلك كانت في مقام الصّدّيقة»[40]، وفي هذه الأثناء يخترق حالة القلق تدخل الفعل الإلهي ليعضدها في مواجهة محنتها، فيحضر العجيب ويتكلم المولود[41] ويجري

35 - إنجيل لوقا الاصحاح 1: 6 - 7.

36- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج 16 ص 87.

37- المسعودي حمادي، الاحتفاء بالخلق في النصوص الدينيَّة، ضمن مجلة "العرب والفكر العالمي"، العددان التاسع عشر والعشرون 1992.

38- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج 16 ص 85.

39- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 16 ص 85.

40- ابن عاشور، المصدر السابق، ج 16 ص 85.

41- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 16 ص 86.

الماء ويحضر الطعام. يقول ابن عاشور: «وهبها الله طعاماً طيباً وشراباً طيباً كرامة لها يشهدها كل من يراها وكان معها خطيبها يوسف النجار ومن عليه أن يشاهدها فيكون شاهداً بعصمتها وبراءتها ممَّا يُظن بها. فأمَّا الماء فلأنَّه لم يكن الشأن أن تأوي إلى مجرى لتضع عنده. وأمَّا الرّطب فقيل كان الوقت شتاء ولم يكن إبَّان رطب وكان جذع نخلة ميتة. فسقوط الرطب منها خارق للعادة، وإنَّما أعطيت رطباً دون التمر لأنَّ الرطب أشهى للنفس إذ هو كالفاكهة وأمَّا التمر فغذاء»[42]. وما نلاحظه أنَّ ابن عاشور سعى إلى تحليل الظاهرة، ففسَّر تدخل القدرة الإلهيَّة وإعطاء مريم هذه الكرامات بالحكمة. فجعل ما قدَّمه الله لمريم هو نتيجة وعي العاطي بحالة المعطى له. وهو التصوُّر الإسلامي الشائع الذي يتمثل في تدخل الله في التاريخ من أجل دعم عباده وأوليائه الصالحين. ويواصل حديثه عن كرامات مريم فيرى أنَّ إثمار الجذع اليابس رطباً ببركة تحريكها له كرامة أخرى لها بقوة يقينها بمرتبتها[43]. ثم يعلق على مسألة كلام المولود أثناء الولادة فيرى أنَّه وحي أوحاه الله إلى مريم وأجراه على لسان الطفل تلقيناً من الله لمريم وإرشاداً لقطع المراجعة مع من يريد مجادلتها. وبين محتوى هذا الوحي «فعلمها أن تنذر صوماً يقارنه انقطاع عن الكلام. فتكون في عبادة وتستريح من سؤال السائلين ومجادلة الجهلة»[44].

ليكون بذلك ابن عاشور قد وضعنا أمام نظام جديد للوحي تختلف فيه الأطراف عمَّا هو مألوف، وقد سبق أن بيَّنا ذلك.

الله	الله
↓	↓
الملك	الملك
↓	↓
الرسول/ النبي	المولود
↓	↓
القوم	مريم

ولا مبرّر لنا في ذلك سوى اقتناعنا باحتفاء الضمير الإسلامي بمريم.

42- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 16 ص 87.

43- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 16 ص 88.

44- ابن عاشور، المصدر نفسه، ج 16 ص ص 89 - 90.

خاتمة:

ما نلاحظه أثناء حديثنا عن صورة مريم في «التحرير والتنوير» أنَّ ابن عاشور قدَّم لنا صورة امرأة صدّيقة مباركة اصطفاها الله من بين نساء العالمين لتكون وعاء لكلمته. وقد حشرها في زمرة الأنبياء فهي نبيَّة حظيت بالرعاية الإلهيَّة منذ ولادتها، ولذلك فإنَّ اصطفاءها لم يكن أمراً فجائياً كما تقدّم ذلك الأناجيل، وإنَّما سبقت هذا الاصطفاء عدَّة علامات جعلتها جاهزة لتفوز بهذه النعمة الإلهيَّة.

وغابت عن هذا كلّه صورة أم الإله وخادمة الربّ وحضرت صورة مريم المسلمة، ما يجعلنا نقرُّ بأنَّ مريم التي قدَّمها ابن عاشور ليست هي مريم التي صوَّرتها الديانة المسيحيَّة، وإن وجدت بعض نقاط التشابه بين الصورتين، فقد أضفى ابن عاشور صفة الإسلام على هذه الشخصيَّة، فجعلها مسلمة رغم السّبق الزمني. ويعود ذلك إلى الاعتقاد المتداول داخل الفكر العقدي الإسلامي بأنَّ الإسلام هو أصل جميع الديانات، وأنَّ الديانات السابقة له ليست إلا بعض صداه. يقول «محمد محمود» في هذا السياق مستعملاً مصطلح «توليد التطابق»: «لقد استوعبت قاعدة توليد التطابق هذه الشخصيات السابقة على الإسلام بأن استدمجتها استدماجاً ما، وأسبغت عليها سمة «الإسلام»[45].

45- محمود، محمد، من الموازاة إلى النفي، حول مركزيَّة مؤسسة النبوَّة في الإسلام، مجلة مواقف، عدد 68.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017

All rights reserved © 2017